المحاضرة الثالثة: أثر اللغويين في تطور النقد العربي القديم

تمهيد

ارتبطت نشأة النقد العربي القديم ارتباطًا وثيقًا بعلوم اللغة، إذ كان اللغويون هم أوائل من تصدّوا لشرح النصوص الشعرية والقرآنية، وضبط معانيها، وتمييز صحيحها من فاسدها. ومن هنا نشأ التداخل بين الدرس اللغوي والدرس النقدي، حتى أصبح اللغويون من أبرز المؤثرين في مسار النقد العربي في مراحله الأولى.

ويمثل النقد العربي القديم مرحلة تأسيسية في تاريخ الفكر العربي، غير أنّ هذا النقد لم ينشأ في بداياته بوصفه علمًا مستقلاً، بل تخلّق داخل رحم الدرس اللغوي. فقد كان اللغويون – بحكم اشتغالهم بجمع اللغة وتقعيدها وتفسير النصوص – أول من مارس نوعًا من التقويم الفني للنصوص، وإن جاء ذلك في إطار لغوي بالأساس. ومن هنا يمكن القول إن اللغويين شكّلوا البنية التحتية المعرفية التي قام عليها صرح النقد العربي لاحقًا.

وتسعى هذه المحاضرة إلى بيان الكيفية التي أسهم بها اللغويون في نقل النقد من مرحلة الذوق والسليقة إلى مرحلة المعيار والتقعيد، مع إبراز حدود هذا الدور وإشكالاته.

شكّل اللغويون في العصرين الأموي والعباسي حلقةً تأسيسية في معالجة قضايا الشعر، إذ تناولوه من زاوية لغوية ونقدية في آنٍ واحد. فقد كان همّهم الأول حفظ العربية وتقعيدها، غير أن انشغالهم بالشعر — بوصفه أوثق نصوص الفصاحة — قادهم إلى بحث قضاياه الفنية والدلالية. ففي **الكتاب** لـ سيبويه نرى الشعر مادةً استشهادية كبرى يُستنبط منها القياس، ويُناقش من خلالها مفهوم الشذوذ والضرورة، مما جعل النص الشعري خاضعًا لتحليل نحوي دقيق. أما الأصمعي في *الأصمعيات* فقد جمع الشعر الجاهلي وصنّفه، مؤسسًا لمعيار الفصاحة المرتبط بسلامة السليقة والاحتجاج بالبادية. واهتم أبو عبيدة في *مجاز القرآن* بشرح الأساليب والصور، مما فتح باب النظر في البلاغة الشعرية من خلال تحليل المجاز والدلالة. ثم جاء المبرد في *الكامل* فمزج بين الرواية والشرح والتقويم، معلقًا على جودة الألفاظ وصحة المعاني، فاقترب من الحكم النقدي الصريح. وتُوّج هذا المسار عند ابن جني في الخصائص، حيث ناقش قضايا الاشتقاق والصوت والدلالة، وربطها بطبيعة التعبير الشعري ومرونته. وهكذا يتبين أن كتب اللغويين، وإن كُتبت في ظاهرها لخدمة النحو واللغة، كانت في جوهرها معالجةً منهجية لقضايا الشعر من حيث روايته،

وصحته، وبناؤه، ودلالته، وجماله، مما مهّد لظهور النقد البلاغي والفني في صورته المستقلة لاحقًا.

ومن القصص المشهورة في توجيه اللغويين للشعر والشعراء في العصر العباسي ما كان بين الأصمعي وأبي نواس، وكان الأصمعي معروفًا بشدة تحرّيه لفصاحة العرب الخُلَّص، وكان لا يحتجّ إلا بما سمعه من الأعراب في البادية، ويرى أن اللغة تؤخذ من منبعها الصافي بعيدًا عن لحن الحواضر.وذات يوم أنشد أبو نواس في مجلسٍ ببغداد أبياتًا تضمّنت ألفاظًا حضرية متداولة في بيئة المدينة، وبعض التعابير التي لم ترد في شعر العرب الأوائل. فلما سمعه الأصمعي، أنكر عليه ذلك وقال له ما معناه:يا أبا نواس، ما هذه الألفاظ التي لا تعرفها العرب؟ أتقول شعرًا وتدع لسان الفصحاء؟

فأجابه أبو نواس بثقةٍ وشيء من الطرافة:يا أبا سعيد، إنما اللغة ما أفهم وأُفهِم، ولسنا اليوم في البادية، وإنما نحن في بغداد!

وكان يقصد أن اللغة كائن حيّ يتطوّر بتطوّر الحياة، وأن الشعر ينبغي أن يعبّر عن عصره، لا أن يبقى حبيس ألفاظ الصحراء وصور الأطلال.

فالأصمعي يرى أن الاحتجاج اللغوي لا يكون إلا بكلام العرب الأقحاح قبل فساد اللسان، وأن الشاعر ينبغي أن يلتزم طرائقهم وألفاظهم. و رأى أبو نواس أن الشاعر ابن عصره، وأن من حقه إدخال مفردات الحياة الجديدة (كالخمر، والمجالس، والقصور، وأدوات الحضارة العباسية) حتى لو لم ترد في الشعر الجاهلي.

ومما روي عن الشاعر مروان ابن أبي حفصة واللغوي يونس بن حبيب أن مروان كان شاعرًا يمدح الخلفاء والأمراء ليحصل على العطاء. وكان معروفًا بالفصاحة لكنه لم يكن من علماء النحو الكبار.

ذات يوم لقي النحوي يونس بن حبيب، وهو من كبار علماء النحو في البصرة، فأخذ يونس يسأله عن بعض مسائل اللغة والنحو ليختبر علمه. فأجاب مروان ببعض الأجوبة التي لم تكن دقيقة.

فقال له يونس بن حبيب ما معناه:إنك شاعر جيد، ولكنك لست من أهل التعمق في النحو.فأجابه مروان بذكاء ساخر:**أنتم تُقوّمون كلامنا، ونحن نُقوّم معايشكم".** وقصد بذلك أن **النحاة** يصححون لغة الشعراء ويضبطونها،

والشعراء بمدائحهم للخلفاء يجلبون المال والجوائز، وهي التي يعيش منها كثير من الناس، ومنهم العلماء.

*** مصطلح الضرورة الشعرية:**

يُعدّ الجدل الذي نشأ بين اللغويين والشعراء في التراث العربي من العوامل الأساسية التي أسهمت في نشوء مفهوم **الضرورة الشعرية** .فقد كان اللغويون يسعون إلى تقعيد اللغة العربية وضبطها بقواعد دقيقة، كما يظهر في جهود علماء النحو الأوائل مثل **سيبويه** و**يونس بن حبيب**، الذين عملوا على استقراء كلام العرب ووضع الضوابط التي تحكم الاستعمال اللغوي الصحيح. وفي المقابل، كان الشعراء يمارسون الإبداع ضمن إطار الوزن والقافية، وهو ما قد يدفعهم أحيانًا إلى تجاوز بعض القواعد اللغوية الصارمة من أجل المحافظة على البناء الإيقاعي للنص الشعري.

وقد أفضى هذا التباين في المنظور بين الطرفين إلى بروز إشكال نقدي ولغوي يتمثل في كيفية تفسير الانحرافات اللغوية التي ترد في الشعر. فبينما رأى بعض اللغويين في هذه الظواهر أخطاء لغوية ينبغي ردّها إلى القاعدة، اتجه فريق آخر إلى تفسيرها بوصفها ظواهر فنية تفرضها طبيعة القول الشعري. ومن هنا ظهر مصطلح **الضرورة الشعرية** ليعبّر عن الحالات التي يخرج فيها الشاعر عن القاعدة النحوية أو الصرفية أو الصوتية خروجًا مبررًا تفرضه مقتضيات الوزن أو القافية.

ومع تطور الدرس النحوي، أصبح مفهوم الضرورة الشعرية أداة تفسيرية يعتمد عليها اللغويون في التعامل مع الشواهد الشعرية التي لا تنسجم ظاهريًا مع القواعد المقررة. فقد أقرّ كثير من النحاة بإمكان وقوع بعض التغييرات في بنية الكلمة أو تركيب الجملة في الشعر، مثل الحذف والزيادة وتغيير الحركات أو تقديم بعض العناصر وتأخيرها، على أن يكون ذلك في حدود ما تسمح به طبيعة اللغة ولا يخلّ بالفهم العام للنص.

إضافة إلى ذلك، أسهم اللغويون في تطوير أدوات التحليل النقدي من خلال دراساتهم في الأصوات والبنية اللغوية والعروض. ويُعدّ **الخليل بن أحمد الفراهيدي** مثالًا بارزًا في هذا المجال، إذ أسّس علم العروض الذي مكّن النقاد من فهم الأوزان الشعرية وتحليل البنية الإيقاعية للقصيدة، وهو ما أتاح للنقد الأدبي وسيلة علمية لدراسة الشعر من حيث بنائه الفني.

وعلى هذا الأساس يمكن القول إن إسهامات اللغويين لم تقتصر على تقعيد اللغة فحسب، بل امتدت لتشكّل ركيزة أساسية في تطور النقد الأدبي العربي القديم، حيث وفّروا للنقاد الأدوات والمعايير التي ساعدتهم على قراءة النصوص الشعرية قراءةً دقيقة تجمع بين سلامة اللغة وجمال التعبير.